صدق الانتماء بين القائد وشعبه

□ هذا هو محض الإيمان الذي عاشه المجتمع الإسلامي في عصر النبوة وصدر الخلافة في زمن كهذا تحيط بنا أيامه، صقلت الفتن والمحن المجتمعات البشرية حتى بات العالم المادي وأصبحت المصالح الذاتية قوانين تحكم المجتمعات، فهوى من هوى في نار الماديات، وثبت من ثبت في حسن الصدق والولاء، والأرض كل الأرض اليوم تموج بها أمواج القلاقل والفتن من كل صوب واتجاه فمن كوارث طبيعية إلى حروب دموية مروراً بالعقبات الاقتصادية فالأزمات الاجتماعية تعيش البشرية اليوم في ابتلاء في أثر ابتلاء، ومصيبة في أثر مصيبة.

وفي خضم كل ذلك يبرز المجتمع السعودي في إطار من التمازج الإنساني العقائدي ليعطينا صورة هي من أروع صور التلاحم والتراحم بين القيادة والشعب، فمن مبدأ السمع والطاعة تنبثق وشائج الولاء من الشعب لتمتزج بوشائج الرعاية من الحكم وهذان يعدان أصلاً من أصول العقيدة الإسلامية التي هي بحد ذاتها تعتبر مصدر قوة التلاحم في المجتمع السعودي.

ومن هذا المنطلق تصبح وشائج الترابط والولاء عبادة يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى، وغاية ابتغي بها إقامة حكم من أحكام شرع الله على الأرض ففي الحديث الصحيح: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله» رواه مسلم ، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعصي الأمير فقد عصاني» رواه مسلم.. وفي الحديث الآخر عن عبادة عن أبيه عن جده قال: «بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثره علينا وأن لا ننازع الأمر أهله وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا تأخذنا في الله لومة لائم».

والسمع والطاعة هي من الأمور التي أوصى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع إذ إن مما قاله عليه الصلاة والسلام في خطبة حجة الوداع: «ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله فاستمعوا له وأطيعوا» متفق عليه» وهذا شيء من جملة أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم تشير إلى مدى أهمية السمع والطاعة للإمام الحاكم بشرع الله وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن مبدأ الولاء والوفاء في الإسلام يعتبر عقيدة يؤمن بها المسلم ليمارس من خلالها شعائر التعبد الشعوري لله سبحانه وتعالى، ومن هنا يكون مبدأ الثبات في ميزان الأمن والاستقرار للمجتمع السعودي، فالمسلم في هذه الأرض يستشعر عظمة عقوبة الخارج عن جماعة المسلمين في الدنيا والآخرة، ومن نصوص الشرع الدالة على ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: (من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات ميتة الجاهلية من قاتل تحت راية عميه يغضب لعصبه أو يدعو إلى عصبه أو ينصر عصبه فقتل فقتله جاهلية، ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى من مؤمنها ولا يعطي لذي عهد عهده فليس مني ولست منه). رواه مسلم..

لذلك نجد الفرد السعودي يقف في خط الاستقامة للصف الواحد بغية في نيل الرضى من الله سبحانه وتعالى، ومن ثم سعيا في تحقيق غاية القوة بمبدأ الوحدة على كافة حدود معانيها نفسياً واجتماعياً وعسكرياً واقتصادياً، فيما نجد كفة الميزان يرجحها في الثبات على الأمن والاستقرار من الجهة الأخرى عدل، ورعاية القيادة السعودية بالشعب السعودي حيث إن دأب القيادة السعودية منذ بدأ تأسيسها حتى يومنا هذا هو دوما المحاولة الدؤوبة في تحقيق مبدأ العدالة، بما يتفق مع الطاقات والقدرات وهذا أيضاً وراؤه شعور عقائدي قوي في صدق الإيمان بأن الولاية والحكم مسؤولية أمام الله سبحانه وتعالى أكثر مما هي عليه من الشؤون الأخرى.

ومن هذا المبدأ تنطلق القيادة السعودية في ممارسة المسؤولية حيث إن عملها الدائم وجهدها المستنفذ هو تقديم مصلحة الإسلام والمسلمين والشعب السعودي على كافة المصالح الخاصة والعامة، تسعى جاهدة في أخذ حق الولاية وأداء ما عليها بكل الاستطاعة المتاحة لديها وذلك هو الحدث الذي لمسه الواقع وشهده التاريخ منذ عهد الملك عبدالعزيز طيب الله ثراه وإلى يومنا هذا، وسجلته شهادة الأيام واعترف به وأقره الأصدقاء والأعداء وأجله كبار السياسة والقادة والعلماء والأدباء.

ومن أروع ما استشهد به لذلك هو ما قاله اللورد ادف اتلون أحد حكام كندا ما يفاد نصه: شهدت بنفسي عندما زرت المملكة العربية السعودية ماذا صنع الملك عبدالعزيز لرفاهية شعبه لقد استقر بفضله السلام والأمن في البلاد التي كانت تمزقها المنازعات الداخلية، وأتيح لي أن أشهد كيف تم الاعتراف به ملكا وزعيما على شعبه الذي أنار له حكمه الطريق والارتقاء في جميع النواحي الاجتماعية والاقتصادية والتضامنية.

وأيضاً ما قاله المستشرق المجري جروماتوس: الملك عبدالعزيز هو الملك الذي جرد سيفه في سبيل دينه وعقيدته يجمع في طبيعته روح الحرب والسلم لا يقاتل الناس ولا يعتدي عليهم إنما يحارب الجهل ويقاتل الجمود ويكافح التأخر:

هذا قليل من كثير مما شهد به غير المسلمين في عدالة قيادة الملك عبدالعزيز للشعب السعودي بل إن الواقع الملموس، الذي يشير إلى عظمة الإنجاز الذي قام به الملك عبدالعزيز بالأمس وهذا الشموخ في عظمة الإنجاز وعدالة الاستقرار لم يقتصر على الجهد الذي مضى في جعبة التاريخ من إنجازات الملك عبدالعزيز طيّب الله ثراه إنما هو ذات الطريق الذي تسير عليه القيادة السعودية اليوم ممثلة في خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله وولي عهده الأمين وسمو النائب الثاني وذلك في تحقيق غاية الأمن والاستقرار.

ولعلنا نجد اليوم بين كل كلمة وكلمة وبين كل جملة وأخرى واقعاً ملموساً نحياه في سجل الأيام من توقير العلماء ونشر العلم والنظر في شؤون المسلمين عامة وخاصة، وخدمة الإسلام والاهتمام بشؤون الحرمين وزوارهما، والاهتمام بكتاب الله وتحكيم شرعه على الأرض والعمل على تحقيق الرفاهية للمجتمع السعودي والحرص والاهتمام بكافة شؤونه دوما الواقع الملموس ليس هو بحاجة إلى بضع كلمات تشير إليه إذ إن تلاحم القيادة السعودية بالشعب السعودي هو أولاً وأخيراً فضل من الله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء من عباده ومن ثم هو باكورة عمل العقيدة الإسلامية في هذا المجتمع المتمثلة في حسن الرعاية من قبل الحاكم وحسن الاستجابة من قبل الشعب، وهذا كله أنتج نموذجاً حياً للاستقرار القائم على دعائم قوية من السلام.

وقد وهب الله سبحانه وتعالى هذه الأرض قيادة حكيمة تستدفع الشر بالحكمة وبالعدل المستطاع وشعباً وفياً وهب نفسه وماله لدينه ومليكه ووطنه، وأصبحت الأحداث التي يمر بها الوطن العربي مؤخراً بمثابة النار التي افتتن عليها معدن الإنسان السعودي، فصقل الذهب وانصهر بلهيبها النحاس، وهنا تجلى في هذا الموقف عظيم قوة الارتباط بين القيادة والشعب ووثقت وشائج التلاحم بصدق الولاء في لحظة الابتلاء، حيث هب جميع أفراد الشعب السعودي هبة رجل واحد كل على أهبة الاستعداد للفداء، حين ذاك كانت الفرصة سانحة لأصحاب النفوس الضعيفة لإثارة الفتنة بقلاقل الارجاف بغية العبث بالأمن والاستقرار الداخلي، ولكن مما يثير الدهشة أن الأجهزة الأمنية لم تسجل حادثة واحدة تخل بالنظم الأمنية الداخلية للبلد السعودي بل العكس وجد للأمن دعم آخر من بقية أفراد المجتمع السعودي حيث كان المواطن السعودي بمثابة العين الساهرة في الحفاظ على أمن وطنه يقف جنبا إلى جنب رجال الأمن لتحمل المسؤولية والحفاظ على أمن هذا المواطن.

وفي ذلك كله سجل مؤشر التاريخ في تيار الزمن حقيقة ذاتية عن واقع هذه الدولة التي نذرت نفسها حكومة وشعباً لخدمة الإسلام والمسلمين، وليس اليوم في كوكب الأرض من يشخص ببصره نحو أفق التأمل إلا ويجد المملكة العربية السعودية كالواحة وارفة بالاستقرار والأمان والرخاء والسلام لكل من يكتنفه حماها، فماؤها الإخاء وأرضها العطاء وهواؤها أكسجين محبة متبادلة بين الناس.

وحينما تكون وشائج الارتباط بلغت حد السمو في صدق الانتماء بين القائد وشعبه تصبح إنجازات الدول ذات أهداف سامية المقاصد.. إذ نجد في عقر دار الحق معالم لإنجازات تشير إلى أن المملكة العربية السعودية هي معقل الإسلام الذي يلجأ إليه المسلمون في المصائب والفتن ويحتمي بحماه بعد الله في الكوارث والمحن وهذه حقيقة يقود الإيمان بها إلى عزة الإسلام ونصره.

وأذكر أن من قواعد الشريعة المطهرة والملة الحنيفية المحرزة أن طاعة الأئمة فرض على كل الرعية، وأن طاعة السلطان تؤلف شمل الدين وتنظم أمور المسلمين، وأن عصيان السلطان يهدم أركان الملة، وأن أرفع منازل السعادة طاعة السلطان وأن طاعته عصمة من كل فتنة وبطاعة السلطان تقام الحدود وتؤدى الفروض وتحقن الدماء وتؤمن السبل وما أحسن ما قالت العلماء: إن طاعة السلطان هدى لمن استضاء بنورها، وأن الخارج عن طاعة السلطان منقطع العصمة بريء من الذمة، وأن طاعة السلطان حبل الله المتين ودينه القوي، وأن الخروج منها خروج من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية ومن غش السلطان ضل وزل، ومن أخلص له المحبة والنصح حل من الدين والدنيا أرفع محل، وأن طاعة السلطان واجبة أمر الله تعالى بها في كتابه العظيم المنزل به على نبيه الكريم..

وأخيراً أختم سير هذا الموضوع بما قاله الإمام أحمد رضي الله عنه «لو علمت أن لي دعوة مستجابة لصرفتها للسلطان لما في السلطان من صلاح وعزة للإسلام والمسلمين».

مدير عام الدفاع المدني
فريق/ سعد بن عبدالله التويجري